نقد الميتافيزيقا

أ.د. حسون عليوي فندي

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

الملخص

الق صد من وراء هذا البحث فحص النقد المذي وجهته الفل سفة نف سها إلى أول علم من علومها وأ شرفها من حيث المرتبة وهو علم الميتافيزيقا (= ما بعد الطبيعة) وذلك لأن الكثير من المعا صرين ممن يطعن في مزاعم هذا العلم من دون أن يعرف م فا صل الن قد والتحل يل ،التاريخي والمو ضوعي ، لهذا الطعن . ولهذا ذهبنا أولاً وقبل أي شيء إلى أعمق م ضان هذا النقد في الفل سفة الكانطية ثم إلى النقد الو ضعي وإنتهاء بالنقد التفكيكي ، ولكن بإيجاز شديد يقت ضيه التركيز على المفا صل الأساسية في هذا الموضوع .

الكلمات المفتاحية : النقد ، الفل سفة الكانطية، النقد الوضعي، الميتافيزيقا، التحليل .

Criticism of Metaphysics

Summary

The purpose of this research is to examine the criticism that philosophy itself has directed at its first and most noble science, which is metaphysics. This is because many of the contemporaries who challenge the claims of this science do not know the details of the criticism and the historical and objective analysis of this challenge. Therefore, we went first and foremost to the deepest contents of this criticism in Kantian philosophy, then to positivist criticism, and ending with deconstructive criticism, but with great brevity required by the focus on the basic details of this subject.

Keywords : criticism; metaphysics; Kantian philosophy; science; analysis

المقدمة

الميتافيزيقا علم من العلوم الفل سفية الأ سا سية ، بل هو أولها وأ شرفها مرتبة، و نقد الميتافيزيقا يعود بنا من الناحية التاريخية الى تلك اللحظة المعرفية التي كان فيها ارسطو يُدافع عن الفلسفة ضد طعون السوفسطائيين الذين تركوا البحث عن مبادئ (أصول) العالم والتوجه

الى ق ضايا الإن سان . ولكن النقد الأكثر عمقاً و شهرة وتأثيراً إنما ظهر في العصر الحديث ، وبصفة خاصة من طرف الفيلسوف الألماني إيمانؤيل كانط إلى درجة سمّيت فلسفته برمتها بالفلسفة النقدية . لقد توصل كانط ، بعد تحليل مف صل لقدرات العقل الب شري المعرفية ، إلى أن العقل الإن ساني غير قادر على البت ب شأن ق ضايا الميتافيزيقا التقليدية (المدوغمائية) مثل ق ضية المبدأ الأول وخلود النفس وحرية الإرادة ... ونحن نتعرض هنا ا ستناداً إلى هذا النقد الكانطي إلى النقد الو ضعي ، التقليدي والمعاصر المتمثل بنقد الوضعية المنطقية المعاصرة ، وهو نقد يتفق مع المقدمات التجريبية التي استند إليها كانط في ن قده (مع الفارق ا لهام بين النقد الكانطي الإ صلاحي أ سا ساً والنقد الو ضعي الجذري الإنكاري المطلق) ، ثم الإنتقال إلى التعرض إلى أهم النقود الراهن للميتافيزيقا على يد الفيل سوف الفرن سي جاك دريدا بمنهجيته التفكيكية .

أولاً : النقد الكانطي

أ) نقد الميتافيزيقا الدوغمائية

تعر ضت الميتافيزيقا إلى نقد حا سم من طرف صاحب الفلسفة النقدية إيمانؤيل كانط ١٧٢٤ ـــ ١٨٠٤) . ولكن الهدف من وراء هذا النقد لم يكن رف ضاً أو تهديماً لهذا المبحث الفل سفي الأ صيل ، وإنما هو إ صلاح هذا العلم ، كما يقول كانط، الذي هو الميتافيزيقا . و لهذا حرص كانط على تحد يد نوع الميتافيزيقا التي ت صدى لنقدها، وتهفيت ادعاءاتها وهي الميتافيزيقا " المدغمائية " ، ويق صد بها كانط : الميتافيزيقا التي تدعي " إمكان إحراز تقدم ... دون نقد للعقل " (كنط، عمانؤيل، بلا ، ٣٩)، أو الإد عاء بقدرتنا على حل " مشكلات العقل المحض ... التي لا مفر منها " ، المتعلقة ب ـ " الله والحرية والخلود " ، دون فحص م سبق لقدرة العقل أو لعجزه عن إيجاد هذا الحل (المصدر نفسه ، ٤٧).

يُبين كانط أولاً كيف أن مزاعم هذه الميتافيزيقا المدوغمائية نابعة من العقل الب شري نف سه؛ فالعقل الب شري مرهق بأ سئلة ميتافيزيقية لا يمكنه ردّها لأنها مفرو ضة عليه بطبيعة العقل نف سه (المصدر نف سه ، ٢٥)، وهذه الأسئلة تتعلق ب ـ ـ " ديمومة النفس بعد الموت " أو بخلودها ، و " حرية الإرادة " و التدليل على " وجود الله "(المصدر نفسه ، ٢٤٤)، هذا فضلاً عن النظر في العالم بوصفه كلاً .

أما في ما يتعلق بالعالم، فال سؤال هو : هل للعالم بداية في الزمان والمكان أم أنه لامتناه ؟ و في ما يتعلق

بوجود الله تعالى : هل توجد للعالم علّة سامية أم أن الأشياء الطبيعية ونظامها يُشكلان الموضوع الأخير الذي يجب أن نتوقف عنده في كل تأملاتنا ؟ وفي ما يتعلق بحرية الإرادة : هل أن الموجود الإنساني حرّ في أفعاله أم أن شأنه شأن سائر الكائنات ، مسيّر بخيط الطبيعة والقدر ؟ وفي ما يتعلق بالنفس : هل يوجد في محل ما أو في الذات المفكرة ، وحدة غير منقسمة وخالدة ، أم لا يوجد سوى المنقسم والهالك ؟ (المصدر نفسه ، ٣١).

يرى كانط أن هذه الأسئلة متأصلة في العقل البشري؛ فالعقل البشري لا يتوقف عن طرح أسئلة من هذا القبيل، وهي مفروضة عليه بطبيعة العقل نفسه؛ وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يُجيب عنها إجابة قاطعة تطمئن إليها النفوس لأنها تتخطى كلياً حدود التجربة الممكنة؛ ومن هنا تأتي (إشكالية) الميتافيزيقا التي هي إشكالية العقل النظري المحض نفسه .

ويبين لنا النقد كيف أن هذه الميتافيزيقا الدوغمائية التي تحيا على هذه الأسئلة، بقيت " بعيدة كل البعد عن إنتهاج درب العلم الآمنة " (كنت، إيمانؤيل، ١٩٦٧، ٦١). ويستند هذا الحكم النقدي العام إلى مأخذين أساسيين هما أولاً : إن هذه الميتافيزيقا تتقهقر دائماً ولم تحرز أي تقدم ، في حين أن العلم يتقدم باستمرار فيضيف اللاحقون من العاملين فيه (أو العلماء) إلى السابقين معارف جديدة، وثانياً : إذا كان هناك علم واحد (كعلم الرياضة أو الطبيعة أو المنطق) فليس هناك ميتافيزيقا واحدة، بل إننا نجد كماً من الميتافيزيقيات المتنازعة ، كل " ميتافيزيقا تناقض أخرى في أحكامها وبراهينها " (كنط، عمانؤيل، بلا، ٣١)، كما لو أننا أمام " مجرد تخبط عشوائي "(كنط، عمانؤيل، بلا ، ٣١) لا نظير له. وهكذا " إنتهت الميتافيزيقا "، يقول كانط ، " إلى أن قضت بنفسها على أصلها في أن تكون علماً مصدقاً به على الدوام " (كنت، إيمانؤيل، ١٩٦٧،٢٤٤).

إن الأساس الذي يقوم عليه هذان المأخذان المترابطان، والحكم العام على الميتافيزيقا الدوغمائية هو إنها تتجاوز التجربة الممكنة . والمسألة تعود إلى طبيعة العقل النظري المحض نفسه ؛ فهذا العقل لا صلة له مباشرة بأي موضوع، وهو ينزلق دائماً خارج حدود التجربة الممكنة، أو " خارج كل استعمال إمبيري للمقولات "(كنط، عمانؤيل، بلا، ١٨٦) . ولهذا ميّز كانط بين استعمالين للمفاهيم، وقد سمّى المفاهيم التي " ينحصر تطبيقها كلياً ضمن حدود التجربة، محايثة ، وتلك التي تخرج من هذه الحدود، مفارقة " (المصدر نفسه).

الاستعمال المفارق للمفاهيم الذي يتجاوز " حدود كل التجربة " (المصدر نفسه، ٢٠٠) ، هو الذي

يُحوّل المفاهيم الى " مجرد أفكار " (المصدر نفسه)، لا صلة لها بالموضوعات. وهذه هي الأفكار الميتافيزيقية ومنشأها. والمشكلة أن الميتافيزيقي يعتقد أن ما يفكر فيه ليس " مجرد أفكار " بعامة، مجردة، محضة، لا علاقة لها بالموضوعات (ومن ثم فهي عبارة عن " وهم ") وإنما يعتقد جازماً أن ما يُفكر فيه يمثل حقائق وجودية، أو كائنات موجودة بالفعل؛ فعندما يتحدث الميتافيزيقي عن محرك أول يحرك العالم (غائياً) ، في حين أنه هو ذاته لا يتحرك، فهو يعتقد أنه إنما يتحدث عن كائن موجود بالفعل؛ وعندما يقول بوجود (عقل) كلي يتحكم بحركة ظواهر العالم ويوجهها نحو غاية ما ، فهو يعتقد بوجود هذا العقل وجوداً يقينياً أكثر من يقين وجود هذا العالم لأن هذا الأخير ليس سوى تجل له، أو هو (أي العالم) وهم يظهر لمخيلتنا

وهنا يصل التحليل الكانطي النقدي إلى لب المشكلة؛ فالميتافيزيقي يجمع ، في آن واحد ، بين شيئين يبدوان متضادين أو هما كذلك : فهو أولاً يطرح أفكاراً مجردة ويقضي بأحكام عامة بخصوص قضايا تتعلق بأصل العالم وطبيعة النفس ... الخ ، وهو ثانياً يعتقد جازماً أن ما يفكر فيه وما يقضي به يتعلق بحقائق لها وجود مستقل عن ما يُفكره هو، وهذه طريقة في التفكير غير متسقة، ولم تنجب سوى " السراب " كما يقول كانط (كنت، إيمانؤيل ، ، ١٩٦٧، ٤٨) ، وقد تجلى هذا السراب على شكل نقائض .

ومن الضروري لطالب هذا العلم ، علم (ما بعد الطبيعة) ، أن يُمعن النظر في هذه النقائض على قدر ما يستطيع لأنها تشتمل على القضايا الميتافيزيقية الرئيسة. إن كل نقيضة تتضمن القضية ونقيضها، وهي كالآتي

ـــ القضية : العالم له بداية (ونهاية) من حيث الزمان والمكان ؛

نقيض القضية : العالم لامتناه من حيث الزمان والمكان .

ـــ القضية : كل ما في العالم يأتلف من البسيط ؛

نقيض القضية : لا شيء بسيط، إنما الكل مركب (المصدر نفسه ، ٦٨).

القضية : توجد في العالم علل حاصلة بفعل الحرية؛

نقيض القضية : لا توجد حرية، والعالم بكله طبيعة .

القضية : يوجد كائن ضروري، في سلسلة علل العالم.

نقيض القضية : لا شيء ضروري في هذه السلسلة، بل كل ما فيها ممكن (المصدر نفسه ، ٦٤).

هذه هي النقائض الأربع الشهيرة، كما حددها كانط، ويستطيع العقل النظري المحض أن يُبرهن على كل قضية من هذه القضايا ، وأن يثبتها بنفس القوة التي يستطيع بها أن يُبرهن على صحة نقيضها " لأن القضية

ونقيضها يقومان على أدلة واضحة لامعة ولا يمكن رفضها أبداً " ، " وأنا أتعهد " ، يُضيف كانط ، " بضمان صحة كل هذه الأدلة " (كنط، عمانؤيل ، بلا ، ١٦٦).

وهذه ظاهرة من أغرب ظواهر العقل الإنساني، ولكنها ظاهرة تجد أساسها في الاستعمال المفارق للعقل المحض لمفاهيمه وتصوراته الخاصة المحضة عندما ينزلق خارج حدود التجربة الممكنة. فهذه القضايا " مجرد أفكار يستحيل أن تُعطى لنا في التجربة " (المصدر نفسه)، ولهذا فإن التجربة ليست معياراً للحكم على صدق القضية وكذب نقيضها، أو بالعكس؛ إذ كيف يمكن أن نثبت بالتجربة هل العالم قديم أم حادث ، متناه أم غير متناه ، وهل المادة تنقسم الى ما لانهاية أو أنها تأتلف من عناصر بسيطة نتوقف عندها ؟ ولهذا يقول كانط مؤكداً " إن مثل هذه التصورات لا تأتينا من أي تجربة حتى وإن كانت أوسع التجارب الممكنة مدى، ومن ثم فلا يمكن أن نكشف بهذا المحك عن عدم دقة القضية التي نثبتها أو ننفيها "(المصدر نفسه).

وهكذا ، فهي " مجرد أفكار " ، كما ذكرنا ، " وليس بوسع أي إنسان أن يصبح أكثر غنى في المعارف بمجرد أفكار، مثلما ليس بوسع تاجر أن يصبح أكثر غنى لو أضاف بقصد زيادة ثروته ، بعض الأصفار إلى دفتر حسابه " (المصدر نفسه ، ٣٠٠) . فما الحل ؟ الحل هو أن نقوم بعملية اصلاح للميتافيزيقا .

ب) اصلاح الميتافيزيقا

الهدف من هذا النقد الا صلاح لا الهدم؛ وبالفعل فقد دعا كانط إلى القيام بثورة في نمط التفكير وبخاصة في مجال الميتافيزيقا من أجل اصلاحها. ويمكن تحقيق هذا الاصلاح المرتجى إذا اقتدينا بالعلوم التي سارت في طريق العلم الآمنة مثل علم الطبيعة وعلم الرياضة، واتخذناهما مرجعية أساسية في الحكم على مزاعم الميتافيزيقا ، وفي البت في قضايا الميتافيزيقا. وفي هذا قال كانط : " إن مثال علمي الرياضة والطبيعة ... هو مثال جدير بالعناية بما يكفي لكي نتمعن في هوية التحول في طريقة التفكير الذي كان مجدياً لهما إلى ذلك الحد ، فنحاول على الأقل تقليدهما في ذلك، وبقدر ما يسمح تمثيلهما، كمعارف عقلية ، بالميتافيزيقا " (المصدر نفسه ، ٣٤).

واصلاح الميتافيزيقا مهمة أخذتها الفلسفة النقدية الكانطية على عاتقها؛ وكان كانط على ثقة بأن الميتافيزيقا ستبقى، إذا لم يتحقق هذا الاصلاح، حلبة صراع ونزاع ولن تخرج عن " الماحكات الفارغة " التي يقع في حبائلها العقل المحض عندما يخرج من حدود التجربة الممكنة، مماحكات من المزاعم، كل منها ينقض الآخر بنفس قوة الحجة وقدرتها على الإقناع، مزاعم

ا شتهرت على يد الفلا سفة النقدية الكانطية با سم " النقائض " أو " النقـ ضيات " ، كما رأينا. ولكن كيف يحدث هذا الاصلاح ؟

إن العقل يقع في هذه النقائض ، التي هي " مجرد أفكار " ، عندما يخرج عن حدود التجربة المكنة. وفي التجربة نحن ندرك ما يظهر لنا من الأ شياء في الزمان والمكان ، وعندما نخرج عن حدود التجربة هذه فإننا نجد أنفسنا نفكر في أ شياء مستقلة عن الزمان والمكان ، ولا صلة لها بالمعطيات (أو " الحدوس ") الحـ سية (وبالتالي فهي " مجرد أفكار ") . ولهذا يجب التمييز بين " الظاهرة ــ الفينومينا Phaenomena" ، أي ما يظهر لنا من الأ شياء، وبين " الأ شياء في ذاتها ــ النومينا Noumena " ، أي الأ شياء كما هي في ذاتها لا كما تظهر لنا، (وتعني حرفياً : " كائنات معقولة " خالصة)(كنت ، إيمانؤيل ، ١٩٦٧، ١٢٦) .

واستناداً إلى هذا التمييز يجب التفريق بين استعمالين للعقل : ا ستعمال مشروع وا ستعمال غير مشروع؛ يكون الا ستعمال ا ستعمالاً م شروعاً عندما لا يخرج العقل من عالم الظواهر، و بال تالي التجر بة الممكـ نة، ويكون الا ستعمال ا ستعمالاً غير مشروع (أو غير علمي) عندما يتجاوز العقل هذا العالم ويفكر في " الأشياء في ذاتها " ، فيقع في تناقـ ضات الميتافيزيقا الدوغمائية و مماحكاتها الفارغة.

ويعتقد كانط أن علمي الطبيعة والريا ضة قد ا ستعملا العقل ا ستعمالاً مشروعاً بهذا المعنى، فسلكا طريق العلم الآمنة، ولذا يجب أن نقتدي بهما في مجال الميتافيزيقا (إذا أردنا لهذا الاصلاح أن يتحقق) .

والاقتداء بهما في هذا ا لمجال، مجال الميتافيزيقا، يعني أن علينا الاعتبار لطبيعة ملكاتنا المعرفية؛ فلدينا ملكتان معرفيتان هما " الحـ سا سية " و " الفاهمة " ؛ الحـ سا سية هي القدرة على تلقي الانطباعات (أو " الحدوس ") الحـ سية، والفاهمة هي القدرة على تفكير هذه الانطباعات الحـ سية لغرض مقارنتها وربطها (إذ هي في الأ صل مـ شتقة) بو ساطة المفاهيم القبلية (من قبيل المقولات كالجوهر وال سببية) . ولا يمكن الف صل بين هاتين الملكتين في تكوّن المعرفة وحصولها " فمن دون الحـ سا سية لن يُعطى لنا أي مو ضوع، ومن دون الفاهمة لن يُفكّر شيء. والأفكار من دون مـ ضمون فارغة، والحدوس من دون أفاهيم عمياء " (كنط، عمانؤيل ، بلا ، ٧٥) . وفي حال تتجاوز الفاهمة الانطباعات أو الحدوس الحـ سية ، وتفكر بمو ضوعات غير حـ سية، فإنها تكون قد ا ستعملت مفاهيمها بطريقة غير مـ شروعة ، وبـ هذا تكون قد خر جت عن طريق العلم الآمـ نة،

وأصبحت لا تهتم إلا بأفكار مجردة، ف ـ ـ" خارج فلك الظاهرات ليس سوى نطاق فارغ " (المصدر نفسه ، ٦٩) ، وبالتالي سراب .

وعلى طالب هذا العلم ، علم (ما بعد الطبيعة) ، أن يعلم أن الدفاع عن هذا الا ستعمال المشروع للعقل بعامة، والاقتـ صار في التفكير على عالم الظواهر، وعدم تخطي التجربة الممكنة، أ صبح الأ ساس الذي بنى عليه الوضعيون المناطقة نقدهم للميتافيزيقا تحت مسمّى " مبدأ التحقق " المذي سيؤكد على ما قاله كانط من أن أي مفهوم لا يكون على صلة بموضوع ما ، سيكون بلا معنى وخالياً من أي مضمون (المصدر نفسه ، ١٦٤) .

ثانياً : النقد الوضعي

المذهب الو ضعي، تاريخياً، مذهبان : حديث ومعاصر؛ والمذهب الوضعي المعاصر يتمثل بـــ (الوضعية المنطقية) التي تؤكد على أن مبادئ الميتافيزيقا، وكل قضاياها، زائفة ولا معنى لها جملة وتفصيلاً. ولكن هذه الوضعية المعاصرة هي إمتداد للوضعية الحديثة لمؤسسها الفيلـ سوف الفرنـ سي أوغـ ست كونت Compte (١٧٩٨ ـــ ١٨٥٧) ، ولهذا يُفضل الكلام عن كلتيهما هنا .

أ) نقد الوضعية الحديثة للميتافيزيقا

إن كلمة " و ضعي Positive " التي و صف بها أوغست كونت فلسفته، تعني حرفياً : " ما هو حا صل بالفعل " ، و هذا يدل على : ما هو معطى في عالم الظواهر الذي هو مدار البحث العلمي. وعلى ذلك، كان لابد أن يرفض الو ضعي أي اعتقاد بوجود قوى خفية أو مبادئ أولى أو علل ق صوى، لا تنتمي صلاً الى عالم الظواهر المعطى؛ فالميتافيزيقيون يتحدثون ـــــــ يقول كونت عن " وقائع ظاهرة وبطنة، ويزعمون أن الأخيرة هي موضوع بحثهم " (كونت، أوغست، ١٦٣،١٩٦٣)، وهو موضوع لا يمكن التحقق منه بالمنهج التجريبي، وهو المنهج الوحيد القادر على معرفة العالم معرفة صحيحة .

والرفض لمبادئ الميتافيزيقا وق ضاياها كامن في نظرية كونت في تاريخ تطور العقل البـ شري ، بمعنى أن هذه النظرية تؤدي لا محالة الى رفض الميتافيزيقا عن طريق تجاوزها ؛ فالعقل البشري مرّ بثلاث حالات تعد مراحل تاريخ ية في تار يخه الطو يل، هي : اللاهوت ية والميتافيزيقية والو ضعية. وهذا المرور من حالة الى أخرى لازم بالضرورة، ولهذا سمّاه كونت بـــ " قانون الحالات الثلاث " . في الحالة الأولى (اللاهوتية) ف سّر الإن سان الظواهرَ الطبيعية بكائنات فوق طبيعية (آلهة أو أرواح) ، وفي الحالة الثانية (الميتافيزيقية) ف سّرها بقوى مجردة أو كائنات عقلية عبّر عنها بمفهوم الجوهر ... ثم تخطى الإن سان هذين النحوين من التف سير الى حالة التفسير الثالث (الوضعي) الذي يعتمد التجربة بدلاً من التفكير التأملي الميتافيزيقي . وفي هذه المرحلة الو ضعية

كف العقل البشري عن البحث عن علل الظواهر ومبادئ الكون وعلله وجواهره وغايته ، واذ صرف الى معرفة العلاقات بين الظواهر للك شف عن القوانين الطبيعية، واقتصر عليها.

ويرى كونت أن عصرنا الحاضر (الى عهده) هو عصر الو ضعية العلمية؛ وهذا يعني إننا قد تجاوزنا مرحلة الفكر الميتافيزيقي . ولطالب هذا العلم ، علم (ما بعد الطبيعة) ، أن يـ سأل كيف نف سر هذه الأنظمة الميتافيزيقية الحديثة والمعا صرة التي ظهرت وانت شرت بعد عصر كونت في القرن التاسع عشر !

إن هذا الموقف الـ سلبي من الميتافيزيقا، الـ ستمد من فلسفة كونت الوضعية، تبنته بقصد، وعرضته بتفصيل مدرسة الوضعية المنطقية .

ب) نقد الوضعية المنطقية المعاصرة للميتافيزيقا

الو ضعية المنطقية مدر سة فل سفية ق صرت وظيفة الفل سفة على ، تحل يل اللغة العلم ية (Anne,2007,123)وكانت ت سمّى في الأ صل (حلقة فينا) مؤ سـ سها موريس شليك Shlick (ت ١٩٣٦) ، وا شهر ممثليها وذائعي أفكارها كارناب Carnap (١٨٩١ ــ ١٩٧٠) الذي يتحدث عن رفض الميتافيزيقا، وآير Ayer (١٩١٠ ـ ـ ١٩٨٩) الذي عُرف بكلامه عن استبعاد أو إقصاء الميتافيزيقا .

والمعيار الأشهر الذي اتخذته الوضعية المنطقية للفصل بين ما هو علمي وله معنى وما هو ميتافيزيقي لا معنى له، هو معيار أو " مبدأ التحقق Verification Principle " و سنأتي عليه؛ والميتافيزيقا التي ت صدى لنقدها الو ضعيون المناطقة هي الميتافيزيقا التي ت صدى لها كانط؛ يقول كارناب : " سأخلع صفة ميتافيزيقي على كل تلك الق ضايا التي تدعي تمثيل المعرفة ب شأن شيء يفوق أو يتجاوز أي خبرة، مثلاً ، بشأن الجوهر الحقيقي للأ شياء، بشأن الأ شياء في ذاتها ، المطلق " (كارناب، رودلف ، ١٩٧٥، ٢٣٤)؛ وهذا يعني ان الميتافيزيقا تعدنا " بمعرفة عن حقيقة تتجاوز عالم العلم والفهم الم شترك" كما يقول آير (Ayer, 2005, 16)وهذا يعني أن هذا المجال المعرفي ، أي الميتافيزيقا، يُعنى بكل ما يتجاوز الخبرة أو التجربة الح سية، كما يؤكد آير (Ibid, 167). وهذا تعريف سبق أن حدد به كانط مجال البحث الميتافيزيقي عندما قال عن المعرفة الميتافيزيقية بأنها " معرفة تتجاوز حدود التجربة " (كنت، إيمانؤيل، ١٩٦٧، ٥٣)

وتظم هذه الميتافيزيقا، بنظر الو ضعيين المناطقة، نظريات الفلا سفة اليونان القدماء حول (المبادئ الأولى)

، ومذهب الفلا سفة الثنائيين الذين يقولون بمبدأين : روحي ومادي، ومذهب الماديين الذين يقولون " كل ما هو موجود هو مادي في جوهره " وانصار المذهب الروحي الذين يقولون أن " كل ما هو موجود ، هو روحي " (كارناب، رودلف ، ١٩٧٥، ٢٣٤). ويرى آير أنه من الم ستحيل ت صور مرجعية تجريبية يمكن الركون إليها لحل هذا النزاع بين هؤلاء الفلا سفة، ولهذا فإن هذا النزاع لا معنى له(Ayer , 2005. 176.).

هذا، ويمكن لطالب هذا العلم ، علم (ما بعد الطبيعة)، أن يُدقق، إذا أراد، في نقد تحليلي لأحد المفاهيم الميتافيزيقية؛ وعلى سبيل المثال، حلل آير ، المهتم بتاريخ الفلسفة أكثر من زملائه الوضعيين المناطقة، حلل مفهوم " الجوهر ". ومن وجهة نظره أن الجوهر يرد إلى اللغة، ولهذا فهو م شكلة زائفة، شأنه شأن الم شكلات الميتافيزيقية الأخرى؛ وبيان ذلك : أن من المتعذر في لغتنا أن نتحدث عن صفات حسية لأي شيء من الأشياء من دون أن ن ستعمل كلمة أو عبارة تدل على ال شيء ذاته. وهكذا أ صبحنا نميز تمييزاً منطقياً بين ال شيء و صفاته الح سية . وعلى هذا النحو بدأ الفلا سفة ي ستعملون لفظ الجوهر Substance ليدلوا به على ال شيء بمعزل عن صفاته ، في حين أن الأمر ليس على هذا النحو . فمظاهر ال شيء أو صفاته الح سية لي ست منفصلة عن ال شيء الذي تُنسب إليه؛ ف ـ " التحليل المنطقي " ، يقول آير ، " بين لنا أن ما يجعل المظاهر مظاهراً لنفس ال شيء ليس علاقتها بكائن آخر غيرها وإنما علاقتها ببعضها البعض " (Ibid, 172.)

إن ارجاع المفاهيم ، كمفهوم الجوهر والوجود، إلى سوء ا ستخدام اللغة، أو عدم الدقة في ا ستعمال الألفاظ، يؤدي بال ضرورة الى ا ستبعاد أطروحات الفلا سفة حول الوجود. ومن هذه الأطروحات التـ سليم بوجود كائنات غير موجودة أ صلاً في الواقع المح سوس، كائنات تأتي بعمل من أعمال الوهم أو الخرافة، ف ـ " طالما لم يكن لكثير من هذه الكائنات Entities م كان في العالم المح سوس، فقد اخترع لها عالم غير مح سوس وخاص لإيوائها "(Ibid, p. 17 3)

وإلى هذا الوهم يجب أن نن سب كلام هيدغر عن " العدم " ، وكلام الفلاسفة عن " الكليات " اللامحسوسة(Ibid)والمعاني العامة المجردة مثل فكرة الإن سان والخير والجمال ... وبالمجمل إننا لا يمكننا ، ولا يمكن " لأي مؤلف أن يُسوغ القول بوجود أشياء حقيقية خارج التجربة " (Ibid, 167)وقد سبق لشليك ، مؤسس هذه الوضعية الجديدة ، أن اشار الى ان الفلاسفة سيبقون بهذا النهج (إذا لم يغيروا طريقتهم المجردة التأملية في التفكير) ، أ شبه بالمثلين الذين ي ستمرون في التمثيل

دون أن ينتبهوا الى الجمهور وهو يغادر قاعة المسرح (Ayer, 1959, 5).

إن المبدأ الذي أقام عليه الوضعيون المناطقة هذا النقد للميتافيزيقا، والمعيار الذي اتخذوه للفصل بين ما هو علمي وله معنى وما هو ميتافيزيقي لا معنى له هو مبدأ التحقق، كما ذكرنا، وهو مبدأ يحتكم إلى التجربة الحسية للتحقق أو الحكم على صدق القضية أو كذبها. يقول آير " إن المعيار الذي نعتمده في البت في قضايا الواقع الظاهر هو معيار قابلية التحقق؛ فنحن نقول أن العبارة يكون لها معنى بالفعل، بالنسبة لأي شخص، إذا، وفقط إذا، عرف كيف يتحقق من القضية التي تعبر عنها العبارة، أي إذا عرف الملاحظات التي أدت به، تحت شروط معينة، إلى قبول القضية بوصفها قضية صادقة، أو إلى رفضها بوصفها قضية كاذبة " (Ayer, 1959, 167).

والقضايا الميتافيزيقية ليست قابلة لهذا النوع من التحقق لأن حقيقتها لا يمكن فحصها بالخبرة، وهذا يشمل قضايا " الميتافيزيقا المتعالية " و " مشكلات الحقيقة " (بين الواقعيين والمثاليين) و " الأخلاق المعيارية " (كارناب، رودلف، ١٩٧٥، ٢٤٠). ويقول كارناب : إن القضايا الميتافيزيقية ــــــــ مثلها مثل الأشعار الغنائية ــــــ ليست صادقة ولا كاذبة لأنها لا تقول شيئاً، وتقع تماماً خارج ميدان المعرفة ، خارج مناقشة الصواب والخطأ (المصدر نفسه، ٢٤٢)؛ وذلك لأن المذي يمكن الحكم عليه بالصواب أو بالخطأ، بالصدق أو بالكذب، هو القابل للتحقق التجريبي أو للفحص بالخبرة ؛ وكل شيء لا يخضع لهذا التحقق التجريبي هو سلسلة من الكلمات الفارغة التي لا معنى لها .

وبالإجمال، فإن كل قضية أو فكرة لا يمكن التحقق منها بالتجربة هي قضية أو فكرة زائفة أو لا معنى لها؛ وهذا ينطبق على كل قضايا الميتافيزيقا كما هو واضح.

هذا ، ويمكن لطالب هذا العلم، أن يُلاحظ، ردّاً على الوضعيين المناطقة، أن كثيراً من قضايا العلم وبخاصة في المستويات النظرية العليا، غير قابلة للتحقق التجريبي المباشر؛ الشيء الذي يعني أن مبدأ التحقق، وهو مبدأ علمي بنظر الوضعيين، سيقصي من حق الوجود كثيراً من القضايا العلمية بحكم كونها زائفة ولا معنى لها. ولهذا يُشير آير نفسه، ومن باب الاعتراف بهذه المشكلة، إلى أن القوانين العلمية العامة مثل " الجسم يتمدد بالحرارة " لا يمكن التحقق من صدقها بدقة بأي سلسلة متناهية من الملاحظات (Ayer ; 2005, 169.) ولهذا يقول : " إذا تبنينا مبدأ القابلية على التحقق الحاسم بوصفه معيار المعنى عندنا، فإننا

مجبرون منطقياً على أن نعامل قضايا القوانين العلمية العامة هذه معاملتنا لقضايا الميتافيزيقا " (Ibid.) .

وليعرف طالب هذا العلم، علم (ما بعد الطبيعة) ، أن " مبدأ التحقق " هذا أثار كثيراً من الملاحظات النقدية والاعتراضات ، وخضع تبعاً لذلك، إلى كثير من التصحيحات وإعادة النظر من قبل الوضعيين المناطقة أنفسهم .

وعلى أي حال، فإن مبدأ التحقق التجريبي هذا ينطبق، بنظر الوضعيين، على كل قضايا العلوم التجريبية، أي القضايا التي سمّوها بالقضايا التركيبية أو " الانشائية " في مقابل قضايا العلوم الرياضية والمنطقية التي سمّوها بالقضايا التحليلية أو قضايا " تحصيل الحاصل " . ويعتقد الوضعيون المناطقة أن كل القضايا العلمية الصحيحة لا تخرج عن هذين النوعين من القضايا. أما قضايا الميتافيزيقا فهي ليست من صنف القضايا الانشائية لأنها عقلية مجردة، وهي ليست من القضايا المنتمية إلى قضايا تحصيل الحاصل لأنها تدعي معرفة جديدة بموضوعات أخرى ليست علمية، ولهذا فهي زائفة ولا معنى لها .

والوضعيون المناطقة في هذا إنما يطبقون نصيحة ديفيد هيوم (١٧١١ــ ١٧٧٦) الذي قال : إذا أخذنا بيدنا أي مجلد في اللاهوت أو في الميتافيزيقا المدرسية، ولم يتضمن موضوعات رياضية أو وقائع وجودية ، فعلينا أن نرميه في النار لأنه لا يمكن أن يتضمن سوى سفسطات وأوهام (هيوم، ديفيد، ٢٠٠٨، ٢٢١).

ثالثاً : النقد التفكيكي، جاك دريدا

التفكيكية اتجاه فلسفي نقدي خالص، بمعنى أن نشاطه الفكري اقتصر أو اكتفى بنقد التراث الفلسفي الغربي ولم يتجاوز مرحلة هذا النقد إلى محاولة بناء نظرية فلسفية جديدة.

والتفكيكية قراءة تهدف إلى تفكيك النص الفلسفي من المداخل من أجل اظهار الاختلاف والتناقض داخله، والتشكك بالأوليات التي سادت التراث الفلسفي الغربي مثل " أولوية الحضور على الغياب، والكلام على الكتابة، والتماثل على الاختلاف، والازلية على الزمن المتناهي " (Kearney, 1996, 439) ولكن التفكيكية التي اتخذها جاك دريدا (١٩٣٠ ــــــــــ ٢٠٠٤) اساساً لهذا النقد اشتهرت، في فضاء الفلسفة، بنقدها الشديد للميتافيزيقا الغربية. ويمكن إيجاز هذا النقد بالآتي :

يقول جاك دريدا : إن تاريخ الفلسفة منذ سب كل الحقيقة إلى اللوغوس Logos (أو العقل) ، والعقل هو المركز الأساسي، وهذه المركزية

التي للعقل Logocentrism تحولت إلى مركزية عنصرية، أي إلى مركزية الغرب؛ والأساس في هذا هو الميتافيزيقا (لأن هذه الأخيرة تقوم على العقل وحسب) ، ولهذا اتجه نقد دريدا إلى تفكيك تراث هذه المركزية الغربية المتمثل بالميتافيزيقا .

والمنهج الذي اعتمده دريدا لتحقيق هذا الغرض هو منهج التفكيك La deconstruction ويقصد بالتفكيك : تحليل بنية مفهومية ، أو فكرة ميتافيزيقية، والرجوع بها إلى أصولها التي نشأت منها. وقد وجد دريدا أن أصل تشكل الأفكار هو الأثر Trace و الاختلاف Differance ، فكل أثر يفترض آخر، وكل مفهوم لا تكون له دلالة أو معنى إلا باختلافه مع مفهوم آخر. ويرى دريدا أن أصل كل الأصول هو الاختلاف الجوهري الذي يكمن وراء الحسي والعقلي وكل الثنائيات ويؤسسها (زيناتي، جورج، ١٩٨٩، ٣٥). وهذا يعني رفض حقيقة وجود مبدأ أول، أو جوهر تُرد إليه الأشياء ، الأمر المذي يعني نقداً هدا ماً للميتافيزيقا لأن الميتافيزيقيين يبحثون دائماً عن المبدأ أو الجوهر الأول .

لقد كانت الميتافيزيقا التقليدية تقوم على متضادات ثنائية مثل : الجوهر والعرض، الأصل والفرع، الحقيقة والمظهر ... الخ وقد أعطت هذه الميتافيزيقا الأولوية للطرف الأول من كل ثنائية (من هذه الثنائيات مثلاً) واعتبرت الطرف الثاني تابعاً للأول وهامشاً. ولكن دريدا يؤكد أن كل طرف من هذه الثنائيات يقوم على الآخر لأن لا معنى له إلا باختلافه مع ما يُضاده، فلا معنى للجوهر دون العرض ولا معنى للحقيقة دون المظهر ... فكل منهما يعتمد في معناه على الآخر طبقاً لمبدأ الاختلاف وهو مبدأ ساسي . والاختلاف لا أصل له لأنه يستمر إلى ما لانهاية، وكما يقول دريدا : إن الاختلاف هو (الحركة أو اللعبة Le jeu التي لا أصل لها ولا فصل، والتي تولد التمايزات والفروقات إلى ما لانهاية) . وعليه فإن لا معنى للكلام عن مبادئ أو جواهر أولى ثابتة للوجود ...

الخاتمة

لا يخرج النقد الوضعي للميتافيزيقا ، على المستوى المعرفي، عن المبدأ العام الذي استند إليه النقد الكانطي وهو عدم جواز الفصل بين الفكر والمعطيات الواقعية ، فالعقل من دون هذه المعطيات لوح فارغ ، والمعطيات من دون العقل عمياء مُشتتة لا يمكن أن تتحوُل إلى موضوع معرفة . و " مبدأ التحقق " المذي اعتمدته الوضعية المنطقية في نقدها هو ترجمان لهذا المبدأ الكانطي ؛ على أن الفارق بينهما كالفارق بين النقد الفلسفي والنقد العلمي الصرف ، لأن النقد الكانطي إنما أتى نتيجة

مترتبة على تحليل قدرات العقل المحض بينما النقد الو ضعي المنطقي جاء تطبيقاً لمنهجية العلوم الطبيعية في ع صرها . أما النقد التفكيكي فهو ، من هذه الحيثية، أقرب إلى النقد الفل سفي منه إلى النقد الو ضعي لأنه يبدأ من / وينتهي عند الن صوص ، ومفهوم " الإختلاف " المُعتمد في هذا النقد ليس مفهوماً علمياً بالتأكيد ...

المصادر والمراجع

أ: العربية

- أوغ ست كونت ، دروس في الفل سفة الو ضعية ، ضمن كتاب د.م. أيكن ، عصر الايدولوجيا، ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة ، ١٩٦٣.
- إيمانؤيل كنت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن ت صير علماً ، ترجمة نازلي اسماعيل حسين ، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة ة والنشر، ١٩٦٧.
- جورج زيناتي : عواصف غربية ضد العقلانية ، هل يغرق العقل . مجلة " الفكر المعاصر " . بيروت : مركز الإنماء القومي، ١٩٨٩،
- ديفيد هيوم ، مبحث في الفاهمة الب شرية، ترجمة مو سى وهبة. بيروت ، دار الفارابي ، ٢٠٠٨،
- رودلف كارناب ، الفل سفة والتركيب اللغوي المنطقي؛ ضمن كتاب : مورتون رايت ، عصر التحليل، ترجمة أديب يو سف شيش، دمـ شق، وزارة الثقافة والأر شاد، ١٩٧٥، ص ٢٣٤.
- عمانؤيل كنط ، نقد العقل المحض ، ترجمة مو سى وهبة، بيروت، مركز الانماء القومي. بلا تاريخ .
- يا سين خليل ، مدخل الى الفلسفة المعا صرة ، (الفصل الثالث) .

ب) الاجنبية

- J. Ayer ; The Elimination of Metaphysics. In : Michael Huemer (ed.) ; Epistemology, Contemporary Reading. London : Taylor and Francis Group, 2005,
- Ayer.A.J; Logical Positivism, New York, Free Press, 1959.
- Anne Fagot – Largeault ; Philosophie de Science, dans : Guillaume.L. Larymonde; Philosophie, Paris : Groupe Eyrolles,2007
- Richard Kearney and Mara Rainwater (eds) The Continental Philosophy Reader. London,Routledge,1996